تقديم :
الضحيّة

أهدي هذا الكتاب إلى ضحايا الحرب العشوائية ولا أجد تعبيراً عن الحال المأساوية التي تلفّ لبنان والانسان على أرضه خيراً من كلمة خاطبت فيها العامل في عيده ، قلت فيها :

ماذا عسانا نقولُ للعاملِ في بؤسه ؟

الرزقُ يتآكل ، والوطنُ ينزف ، والمجتمعُ يتمزق ، والهيكلُ يتداعى .

ماذا نقولُ عن جيلٍ ضائع وأملٍ خائب وغدٍ شاحب ؟

هل نُحّدثُ العاملَ عن العطاءِ والانتاجْ في زمنٍ عزَّتْ فيه الهمم ؟

هل نحدثُهُ عنِ الاخلاق في زمن تلاشت فيه القيم ؟

هل نحدثُهُ عن الوطنية ، في زمنٍ تسودُهُ الانتهازية والوصولية ؟

هل نحدثُهُ عن الحرية ، وهو يرزحُ تحت سطوةِ المتسلطين واستبدادِ المارقين ؟

هل نحدثُهُ عن القضية ، وقد صارَ بينَهُ وبينَها ألفُ همٍّ وهـمّ ، اذ تَنابَتَ من حولِهِ هاجسُ الرغيفِ لعيالِه ، وهاجسُ الحليبِ لصغارِه ، وهاجسُ الدواءِ لعليلهِ ، وهاجسُ المدرسَة لاطفالِه .

هل نُبشّرُهُ بأنَّ هذا قدرُ المناضلينَ والمكافحينَ من أجلِ غدٍ مشرق ومستقبلٍ أفضل .

أيّ حربٍ هي هذه ؟

من همُ الأعداء ، ومن همُ الحلفاء ، في هذه الحربِ المتمادية ؟

عدُونا في الجنوبِ نعرفُه . اسرائيلُ عدُو الوجودِ والمصير ، عدُو الوطنِ والامة . ولكن ، من همُ الاعداءُ في حربِ القصفِ العشـوائي ، والقنصِ الغادر ، والعبـوات

الناسفة ، والسياراتِ المفخخة ؟ من الذي نحاربُ باغلاقِ المعابر ، وتعطيل المطار ، ومصادرةِ المرافىء ، وجبايةِ الخوات ؟

من همُ الحلفاءُ في حربِ الجارِ ضدَّ جارِه ، في معاركِ الاحياءِ والازقة ، في اقتحامِ المنازل ، وترويعِ الآمنين ، وخطفِ الشرفاء ، واذلال الكرام ، وجَلدِ الابرياء ؟ وهو ما كان في بيروت ، ولم تبرأْ من مثلِهِ بعضُ المناطق . وقد طوت بيروت ، والحمدُ لله ، صفحةَ الجاهليةِ هذه في خطةٍ أمنيّة نفّذتْها قواتٌ نظامية لبنانية تدعمُها مشكورةً قواتٌ عربية سورية .

أيُ حربٍ هي هذه ؟

هلِ الحربُ صراعٌ على الصلاحياتِ ومن يمارسُها ، فيما الكلُ يسيءُ ممارسةَ ما يقعُ في يدِهِ منها ؟

هلِ الحربُ صراعٌ على المسؤوليات ومن يتحملُها ، فيما الكلُ يتنصل منها ويتنّكرُ لها ؟

هلِ الحربُ صراعٌ على السلطةِ الشرعية فيما السلطةُ بلا شرعيَّة والشرعيةُ بلا سلطة .

علامَ تكونُ الحربُ العبثية ؟

علامَ تكونُ حربٌ : الحسمُ فيها ممنوع والانتصارُ فيها مستحيل ، الظافرُ فيها مفجوع والكريمُ فيها ذليل ؟

أتكونُ الحربُ للحرب ؟

أتكونُ الحربُ لأهلِها ، لمحترفيها ، لطفيلييها ، للمتعيشين عليها ؟

أتكونُ الحربُ لأمجادِ الذين يتبوأون عروشاً ، ويتقاسمونَ وطناً ، ويستنزفونَ دمَ الفقراءِ والمساكين ، وهؤلاءِ اليومَ همُ السوادُ الاعظمُ من اللبنانيين ؟

إننا لا نجدُ كلمةً نؤاسي بها الانسانَ المعذب في هذا الوطن .

لا نجدُ ما نقولُهُ للعاملِ العامل ، فهل نجدُ ما نقولُهُ للعاطلِ عنِ العمل ؟ عفوَكَ يا أخي .

عفوَكَ يا منْ تسعى إلى الرزقِ الحلالِ فلا تجدُه ، وغيرُك يَبني من الحرامِ أمجاداً .

عفوَكَ يا ذا اليدِ المعطاءِ التي لم يعدْ فيها ما يسدُّ رمقاً ويقيمُ أوداً .

عفوَكَ لأننا لم نفكرْ في الرماد ونحنُ نصبُ الزيتَ على النار . إننا لم نفكرْ فيمنْ لا

مدخولَ له ونحنُ نرفعُ الحدَ الادنى للاجور ، ونتنازع حولَ الزياداتِ والشطور ، ، ونناقش التعويضات ، وضمانَ الشيخوخة .

أيُ حربٍ هي هذه ؟

هي حربٌ بلا قضية .

لئن كانَ وراءَ الحربِ يوماً قضية ، فقد غابتْ تحتَ أكداسِ الهمومِ والشجونِ الحياتية . فأضحت بلا جمهور . وقضيةٌ بلا جمهور لا تعودُ قضية .

قضيةُ الناس هي في لقمةِ عيشِهم ، في أمانِهم ، في كرامتِهم .

قضيةُ الناس في نقيضِ الحرب . هي في الوحدة والحرية والسلام .

ولكنَّ قضيةَ الناسِ هذه ، لم يُكتبْ لها بعدُ أن تَرتسمَ مشروعاً للخلاص . لان أهلَ الحربِ لها ولهم بالمرصاد .

تذهبُ قضيةُ الحرب ، ويبقى أهلُها .

انعكستِ الأزمةُ تفسخاً في المجتمع فأفلتتِ الغرائزُ الطائفية من عقالِها وضربتْ عدواها الطوائفَ ففاضتِ العصبياتُ المذهبية ، وتسربتْ جراثيمُها إلى حنايا المذاهب فتبعثرتْ تياراتٍ وجماعاتٍ ومراكزَ قوىً حزبيةً وعشائرية .

هكذا تكادُ الحربُ تُولِّدُ حروباً : حربَ الأخ على أخيه ، حربَ الجارِ على جارِه ، حربَ الضحايا على الضحايا .

الناسُ كلُهم من ضحايا الحرب . وكلُهم أضحى في صدامٍ وأندادَهُ في المصير : العاملُ في مواجهة صاحبِ المعمل ، والمصرفُ في مواجهةِ التاجرِ والصناعي ، ومصرفُ المصارف في مواجهة كلِ المصارف ، والمريضُ في مواجهةِ الطبيبِ والمستشفى والصيدلي ، والطالبُ كما المعلمُ في مواجهةِ المدرسةِ والجامعة ، والكلُ في مواجهةِ الدولة ورموزِها . . . هذا فيما لم يبقَ من الدولةِ إلا شبحُها .

شغلوا الناسَ في صراعٍ عقيمٍ مع المجهول : حرباً على الجوع ، على الاحتكار ، على المضاربة ، على الجشعِ ، على التلاعبِ بلقمةِ الفقير . وأنسَوْا الناسَ أن كلَّ هذه المعاصي قديمةُ قِدَمَ الطبيعةِ البشرية وضعفِها . أما الجديد ، فحربُهم ، وغيابُ الدولة من جراءِ هذه الحرب . حربُهم هي السبب ، وهمُ المسؤولون .

اذا نُوديَ بالاضرابِ احتجاجاً ، استجابَ لبنانُ من أقصاه إلى أقصاه . فإذا بأهلِ الحربْ يتقدمونَ الركب ، وهمُ الذينَ لم تُطلقْ صرخةُ التنديد إلا لتدّوي في وجهِهم .

هكذا ترتفعُ اللافتاتُ والاصواتُ رفضاً لشظفِ العيش ، تُنادي في الغربية بسقوطِ قادة الشرقية ، وفي الشرقية بسقوطِ قادةِ الغربية . وتبقى خطوطُ التماس ، خطوطُ الفصلِ المصطنعة بين شطري العاصمة ، وحدَها فوقَ الاتهام ، وفوقَ الشُبهات ، وفوقَ الملام ، فيما هي ، في حقيقةِ الامر ، رمزُ العلة ، رمزُ كلِ العلة ، لشقاءِ الانسان في لبنان .

يقالُ لنا إن أزمةَ المعيشة من أزمةِ الوطن ، وإنّ أزمةَ لبنانَ من أزمةِ المنطقة . فعبثاً نسعى إلى معالجة شؤونِ الحياةِ والمعيشة ، ما دامتِ الازمةُ الوطنية ، ومن ورائِها الازمةُ الاقليمية ، محتدمة .

ألا بئس ما يزعمون . ألم تكنْ أزمةُ لبنان قائمة ، وكذلك أزمةُ المنطقة قبلَ ثلاثِ سنواتْ مثلاً ، عندما كانتِ المعابر مفتوحة والمطارُ ناشطاً والدولة على قيدِ الحياة ؟ فإذا كانتْ منافذ الحلِ مسدودة إلى حين ، فهل كثيرٌ علينا أن نطلبَ العودة بظروفِ الازمة سنواتٍ إلى الخلف ؟ لا بل ، هل كثيرٌ علينا أن نطلبَ التعايشَ وأزمةَ المنطقة ، في انتظارِ الحلِ العادل لها ، ما دام هذا الحلُ في غيرِ يدِنا ، وهل يكونُ تعايشٌ بين لبنان والازمةِ الاقليمية من غيرِ اتفاقٍ فيما بيننا ؟

هذه الحرب سوف تنتهي ، فأيُ حربٍ في التاريخِ لم تنته ؟
تنتهي الحربُ يومَ نتفق ، وتنتهي يومَ نعرفُ كيفَ نختلف .
تنتهي يومَ نتفقَ على الثوابتْ ، ولو اختلفْنا على المشاريعِ والبرامج .
تنتهي الحربُ يومَ نقرُر الخروجَ من حالِ الصراعِ المسلح ، إلى حالِ الصراعِ السياسي .

تنتهي يومَ نرى في الوفاقِ بدايةَ الاصلاح ، وليس نهايةً له ، يومَ يغدو الاصلاحُ تجربةً ديمقراطيةً مفتوحة ، فنقلعُ عن اعتبارِه صَفْقَةً تُعقد ، لتُغلق . اذ كيفَ ندعو إلى الديمقراطية في ثوابتِنا ولا نحتكمُ إليها في خلافاتِنا .

تنتهي الحربُ يومَ نردِمُ الشقةَ بينَ شعاراتِنا وممارساتِنا ، بينَ أقوالِنا وأفعالِنا ، ويوم تنبذُ كلُ فئةٍ أصنامَها ولا تكتفي بلعنِ أصنامِ الآخرين .

أول أيار ١٩٨٧

سليم الحص